**جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية**

**قسم اللغة والأدب العربي**

**السنة الأولى ماستر**

**المحاضرة الثالثة**

**الشعر الديني في عصر الدول المتتابعة**

 مع توارد المناسبات الدينية، وكثرة الحروب والكوارث الطبيعية، يستشعر المرء الخوف من جلال الله وعظمته، ويرق قلبه، ويتضرع إلى بارئه يرجو مغفرته ورضوانه… وهذه المشاعر الإيمانية الرقيقة تحدو بصاحبها أن يتغنى حيناً بعظمة المولى تعالى وأن يحمده على آلائه ونعمه، وقد بدت هذه المشاعر الإيمانية والمدائح النبوية، والحب الإلهي عند أبناء هذا العصر من خلال قصائد ومقطعات يجمعها رابطة إيمانية أطلق عليها اسم الشعر الديني.

وعلى هذا فإن الشعر الديني في هذا العصر ينقسم إلى :

أولاً : شعر الإيمانيات والزهد .

ثانياً : المدائح النبوية .

ثالثاً : الشعر الصوفي .

**أولاً – شعر الإيمانيات والزهد :**

 تنطلق النفس المؤمنة في لحظات الصفاء والامتحانات إلى الله بارئها فتناجيه وتعترف بقدرته، وتتوكل عليه ليكشف عنها الغم، وتغتنم المناسبات أحياناً لتعبر عن حبها لله سبحانه، فالشاعر مصطفى البابي الحلبي يقف أمام مولاه، يناجيه مناجاة الضعيف الذليل الذي يلوذ به علّه يلطف به فيرفع عنه الضر، ويأخذ بيديه إلى طريق الهدى والصلاح، يقول في ذلك :

**هَوَتِ المشاعرُ والمداركُ عنْ معارجِ كبريائِكْ**

**يا حيُّ يا قيومُ قد بــــــهرَ العقولَ سنا بهائِك**

 ويناجي «العشري» ربه في تسبيحات وتحميدات وابتهالات ويعترف له بدوام ملكه وجبروته وعظمته، وينبه إلى أهمية النية الصالحة في قبول العبادات، يقول في ذلك:

**إني لأشــهدُ أنّ الله خالقُنا**

**وافى بنور له كلَّ الدلالات**

 ويحمد الله «عثمان بن علي الطائي على أن جعله موحداً لأنه بذلك ينجو بعد الموت حين يقف أمام خالقه، يقول معبراً عن هذا:

**ببابك الموتَ بضيــقِ اللحدِ والظُّلَمِ**

**وقائلٌ ما الذي ترجوه حين ترى**

 ونعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى فكم أفاض بها علينا ودفع عنا البلاء ونحن مقصرون في حمده تعالى على ما أنعم، فيثنيي عليه خليل بن كَيْكَلْدي» يحمد الله «الشيخ حسن الرومي على نعمة الهداية وصحة الجسم والعقل، ويدعو الشاعر «يحيى القباني إلى إخلاص النية لله سبحانه ودوام فعل الخير وترك المنكر لأن الأعمال بالنيات، وبحسنها يكون الثواب، يقول في ذلك: **وتخلَّصْ من دنِيْءِ شُغُلِكْ**

 **يا مريدَ الخيرِ أخلصْ عملَكْ**

 أما الدنيا وأحوالها فقد أكثر الشعراء من الحديث عنها «فأحمد المقري» يوجه خطابه إلى من اغترّ بها ويروح يعظه مذكراً إياه أن دوام الدنيا من المحال، يقول:

فالعيشُ في الدنيا الدنِيَّـ في سرعة تبدي فطامَه

 ومنه **الشعر الصوفي** كضرب من الشعر الديني، بينه وبين المديح النبوي والبديعيات وشائج وصلات، لكنه يتخذ مساراً يختلف عن مساريهما معنى ومبنى، أما المعنى فيقوم على الحب الإلهي، وهذا الحب عماده وجوهره وغايته وثمرته. والحب، في عرف أصحابه، حالة ذوقية تفيض على قلوب المحبين، مالها سوى الذوق إفشاء، ولا يمكن أن يعبر عنها إلا من ذاقها، ومن ذاقها ذاهل عن كنهها، كمثل من هو طافح سكراً، إذا سئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه لا يمكنه التعبير لأنه سكران. والفرق بين سكر المحبة وسكر الخمرة أن سكر الخمرة يمكن زواله، ويعبر عنه في حين الصحو، وسكر المحبة ذاتي لازم، لا يمكن لصاحبه أن يصحو منه حتى يخبر فيه عن حقيقته.

 أما المبنى فيقوم على ثلاث دعائم، هي الغزل العذري والخمريات والرمز وقد عرفت هذه العصور شعراء كباراً متصوفين، منهم السهروردي (ت587هـ) وابن الفارض (ت632هـ) وابن عربي (ت638هـ) وأبو العباس المرسي (ت686هـ) والعفيف التلمساني (ت690هـ) وابن عطاء الله السكندري (ت709هـ) وعائشة الباعونية (ت922هـ) وغيرهم.

**ثانياً – المديح النبوي**:

 منذ أن أطلق حسان بن ثابت صرخة حبّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدوية في وجه المشركين تقرع آذانهم وتخفق منها قلوبهم عجباً ووجلاً، وذلك بقوله:

**ويمدحه وينصره ســـــواء**

**فمن يهجو رسول الله منكم**

 كشف للشعراء عن دور الكلمة في تبيان منزلة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، فهو نبي الهدى المؤيد بالله سبحانه الذي أحبه من أحبه ،فمدحه حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، والثانية طور التعبد بها لإظهار حب الشاعر لرسول الله ص،  وكان أقدمها مدحة الزمخشري ( ت 538 ) التي مطلعها:

**أنى لها وغرار عزمي باتر**

**قامت لتمنعني المسيرَ تماضرٌ**

1**- أسباب المدائح النبوية**:

أ- المناسبات الدينية التي تتوالى في كل عام هجري كعيد رأس السنة الهجرية، وعيد المولد النبوي الشريف وزيارة الحج والعمرة أو المرور بأراضٍ فيها ذكريات دينية، فالشاعر «محمد بن الطيب» يتمنى أن يذهب إلى الحج، يقول معبراً عن هذه المشاعر الإيمانية العميقة:

ألا ليت شعري هل أرى البيتَ مُعْلَماً

نلُمُّ بهاتيكَ البقــــــــــــــاعِ فنَلْثُما

ب- الحروب والثورات الداخلية كالحروب الصليبية التي أدت إلى صراع عقائدي بين المسلمين ومنها قصيدة البوصيري التي يبين فيها أن التوراة والإنجيل قد بشرا بمقدمه، يقول:

**قِدْماً بأحـــــمدَ ثم باسماعيلا**

**تخبِّركُمُ التوراةُ أنْ قد بُشِّرَتْ**

 وسفك الدماء والاضطرابات ولاسيما إن كان الشاعر قد اشترك فيها، كما حدث للشاعر أمين الجندي يقول : **نبي لمثلي خير كاف وكافلِ**

 **توسلت بالمختارِ أرجى الوسائلِ**

ج- الكوراث الطبيعية: التي تذكر بالمولى سبحانه ونبيه ،ومن هذه الكوارث الزلزال الذي أصاب حلب بمثل قول الشاعر عمر اللبقي :

من الخطبِ والزلزالِ قد خاف واختشى

إليك أنَبْنا والتـــــــــــــجأْنا فنجِّنا

د- أسباب ذاتية: كتوبة شاعر إلى الله وإنابته، وكان الشاعر «أيمن البزولي»([62]) ، قد تاب بعدما أسرف على نفسه بقوله (كيف ترضى بفراقنا) فراح يثني عليه .

هـ- أسباب أدبية: ومنها معارضات الشعراء فالشاعر «أحمد الخفاجي:

وبلِّغْ أخاك الشوقَ مني وســلِّم

أبدراً أضاءَ الأرضَ للعُرْفِ تَمِّم

و- انتشار التصوف: وقد يغالي أصحابه في الثناء عليه

ز- حب الله ورسوله: والتعبير عن هذا الحب وسيبين بعد قليل.

 وقد دفعت هذه العوامل الناس إلى الالتصاق بالدين والاستشفاع بالرسول لتفريج الكرب، وقد غذّي المماليك اتجاه الاحتفالات الدينية مما جعل هذا اللون من أنشط الألوان الأدبية. وقد ذكر الشعراء معاني لهذه المدائح منها: أخبار الرسول – صفاته ومعجزاته- الحديث عن المدينة المنورة- ذكر الخلفاء الراشدين من ذلك ما قاله البوصيري:
**أمن تذكر جيــــران بذي سلم فرجت دمعا جرى من مقلة بدم**

**أم هبّت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ وأومض البرق في الظلماء ومن إضم**

 وقد حذّر الشاعر في نهج بردته من هوى النفس وقال:

**النفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم**

**فاصرف هواها وحاذر أن توليه إنّ الهوى ما تولّ يصم أو يصم**

**2- اتجاه المدائح:**

أ‌-        **قصائد المديح النبوي:** وقد سارت هذه على نهج القصيدة العربية التقليدية في تعبيرها عن حب النبي ص بلا كلفة أو تصنع، فالشاعر «أبو الوفاء العرضي يرمز له بليلى، يقول:

**على ليلى وتُقْريها الســلاما**

**تمامُ الحجِ أن تقفَ المطايا**

 وهذا الغزل يتسم بالسمو الخلقي والفكري ، وتذكر فيه الأماكن الحجازية غالبا .وقد يأتي التعبير عن حبه مباشرة دون أن تذكر امرأة وهمية فالشاعر «علي الوهبي الجفعتري» يترجم مشاعره هذه دموعاً يقول في ذلك:

واعتراني الجوى وزاد افتضاحي

**هزني الشوقُ للرُّبا والبِطاح**

**وزَرُوْد وحَزْن تلك النواحي**

 وأما صفاته الجسمية فقد وصفها الشاعر «محمد بن علي الجمالي» فأشاد بجماله وكمال خَلْقه ونورِ بِشْرته، يقول في ذلك :

وجهُه بالضِّيا كبدرِ السماء

كان فخــــماً مفخّماً يتلالا

 ويكثر في المدائح النبوية استغاثة الشعراء بجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم رجاء أن يكشف المولى سبحانه عنهم البلوى بحبهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويطلب المدّاح النبوي من صاحب الرسالة أن يشفع له يوم العرض الأكبر كيف لا، والأنبياء تحتمي به وتطلب منه أن يتوسط لها عند بارئها، وخاتمة المدحة: نهاية التطواف ولذلك يصلي فيها الشاعر على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته، وقد يذكر قرابته منه كما فعل «عبد الرحمن العيدروس بقوله:

**محبوبُ مَنْ أدنى وأقنى**

**جدي الــنبيُ المصطفى**

ب **– البديعيات:**

 وعرفت البديعيات بعد على أنها قصائد طويلة في المديح النبوي تسير على نهج خاص تشبه فيه المدائح التقليدية إلى حد كبير، وتأتي غالباً على البحر البسيط وروي الميم المكسورة، ويحتوي كل بيت منها على لون بديعي، سواء أذكر اسم هذا اللون أم لم يذكر.ولهذا فإن الصرصري برأيي كان قد فتح الباب إلى البديعيات قبل البوصيري، وقد قلده البوصيري ، ثم صفي الدين الحلي الذي ألف كتابا شرح به بديعيته النبوية كما قلداه في موضوعه.

 وكان البوصيري أشهر من عرف بفن البديعيات، وقد وصلت بديعيته إلى ستين ومئة بيت، حوى كل بيت فيها لوناً بديعياً، وكان مطلع بردته:

**مزجْتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدم**

**أمِنْ تذكّر جيران بذي سَــــــــلَم**

**وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إِضَم**

**أم هبتِ الريحُ من تلقـــاءِ كاظمةٍ**

 وكان معاصره صفي الدين الحلي قد أراد أن يؤلف كتاباً في البديع فاعترته علة طالت فرأى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه المديح ويعده بالبرء من سقمه فعدل عن تأليف الكتاب ونظم مدحة سماها «الكافية البديعية في المدائح  النبوية» فشفي  من مرضه كما شفي البوصيري.

وتقع مدحته في خمسة وأربعين ومئة بيت على البحر البسيط، وكان مطلعها:

**واقرَ السلامَ على عُرْبٍ بذي سلـــ؟م**

**إنْ جئْتَ سلعاً فسَلْ عن جيرةِ العلم**

 ثم لاقت البديعيات رواجاً كبيراً من بعده، وقلدها الكثيرون منهم ابن حجة الحموي والإمام جلال الدين السيوطي. وقد ذكر فيها اسم اللون البديعي وهي مطبوعة ولعمر العزازي وتبلغ بديعيته ستين ومئة بيت سماها الحرز المنيع في مدح الشفيع صلى الله عليه وسلم،

**2-أقسام البديعيات:**

1- قسم لا يذكر ناظمه اسم اللون البديعي . مثل بديعية عبد الغني النابلسي المسماة (البديعية المَزريّة بالعقود الجوهرية)وقد جاءت كأخواتها على البحر البسيط وروي الميم المكسورة، واستهلها ناظمها بالغزل الرمزي، ثم ذكر أماكن الحجاز ووصف الحب والعذّال،

**من سفح كاظمة حُيِّيْتَ بالدِّيمَ**

**يا منزلَ الركبِ بين البانِ والعلَم**

2- النوع الثاني: كبديعية السيوطي المسماة: نظم البديع في مدح خير شفيع: وجاءت على البحر البسيط وروي الميم المكسورة كعادة البديعيات، وقد التزم ناظمها ذكر اسم اللون البديعي في كل بيت، واستهلها بذكر أماكن الحجاز موطن الحبيب الذي أضنى هواه جسده، ثم انتقل إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم،  فكأن هذه الأماكن تقابل أطلال الشعراء الغزلين التي ينطلقون منها إلى التعبير عن مواجدهم، يقول في ذلك:

**براعةُ العين في استهلالها بدم**

**من العقيقِ ومن تذكار ذي سَلَمٍ**

 وهذه البديعية كما نرى لا جمال في أسلوبها ولا رواء، وكأن غاية الأديب كانت منصبة على إبراز مقدرته الكلامية والبلاغية من خلال التعبير عن أحاسيسه ومشاعره تجاه الرسول صلى الله عليه.

3**- التجديـد في المدائـح النبـوية:**

1. **في المضمـون:**

ولعل في مقدمة التجديد في المضمون ما ذكر من تطرف في الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي فكرة النور المحمدي السالفتين، إضافة إلى :

1 نظم مطولات في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تجاوزت ثلاثمئة بيت، للتعبير عن لاعجات المحبة والشوق إليه وإلى أهل بيته الكرام، يقول أحمد المقري

**من الحبيبِ يهيِّجْ أشواقَه النَّظَرُ**

**يا ويحَ للصبِّ إن يبدو له أثرٌ**

2- الحديث عن الآثار المتبقية من الرسول ص، وقد ألف أحمد المقري كتابه «فتح المتعال» في مديح وفيها يقول:

**وفوائدٌ زادَتْ على العد**

**لمثال نعلِ المصطفى شرفٌ**

3- مدائح الأنبياء الآخرين كسيدنا زكريا ويحيى وإبراهيم عليهم السلام

4- ومنهم من خص الصحابة الكرام أيضاً بقصائد مستقلة، ومن هؤلاء مدحة «لأمين الجندي المعري» يقرظ فيها الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه فيقول:

**وبعد النبيين الكرام بلا نكر**

**وأفضلُ أهلِ الأرضِ بعد محمد**

5 -  ومن التجديد في المضمون ما حوته المدائح من مبالغات وتطرف نجما عن انتشار الفكر ، كالاستغاثة،  وفكرة النور المحمدي وقد أوضحتهما .

6- ومن التجديد في المضمون أيضا ما حوته قصائد مدائح الأشراف وآل البيت من إشادة بجدهم الرسول ص ، من ذلك قول «مصطفى الترزي»في يحيى بن الشريف بركات :

**أئمةِ حق هم بأصدق أخبار**

**بني حسن أهلِ العلى منبعِ الهدى**

**ب- في البنيـة أو المنهـج :**

1-استهل بعضهم مدحته بمناجاة الله سبحانه مباشرة. وهذا الاستخدام فيما أعتقد أسلوب جديد، وتطور ملحوظ في المدائح.

2- تتأثر القصائد غير النبوية بالمدائح النبوية فتختم بالصلاة على الرسول ص

3 - ما مر من مطولات تاريخية تعليمية حوت سيرة الرسول عليه السلام، وسيرة الخلفاء الراشدين وبني أمية .

4- مقطعات نبوية، كقول محمد بن عمر العرضي في مقطوعة له وكان قد تاب وتزهد :

وأرسيْتُ في تيارِ بحرِ الرجا فلكي

إليك رسولَ الله وجهْتُ وجهتي

**ج- في الموسيقا الشعرية :**

 اتسمت المدائح النبوية بالأنغام الشجية مما جعلها صالحة لأن يترنم بها المترنمون .

1 – **جاء بعضها على أوزان قصيرة** كقول أحمد المقري على البحر المجتث :

**فاقَ النبييـن جاهاً        وسطـوةً وجــلالا**

**فما لأحمـدَ ندري        في المُرسلينَ مثالا**

2- وجاء بعضها **في مزدوجات**

3- وهناك **رباعيات ومخمسات نبوية**، كما فعل أمين الجندي

4 - **ووجد أيضاً موشحات نبوية**، وذكرا للصفات العلى التي يتمتع بها الرسول المصطفى ص

5- ومن الجديد في **موسيقا القصائد النبوية** ما نظم « محمد بن فرج السبتي» كان كل بيت فيها يبدأ وينتهي بحرف واحد

**د- في التشكيـل اللغـوي:**

1- تقليد أساليب القدامى بالمعارضات الشعرية كما فعل  «موسى بن عمر السباعي» حين عارض قصيدة كعب بن زهير التي مطلعها :

**مُتَيَّمٌ إثرها لم يفد مــــــكبول**

**بانت سعاد فقلبي اليوم متبول**

ومطلع قصيدة السباعي:

**وليس لي في سواها قطُّ مأمول**

**صدّت سعادُ وما للحالِ تَحويل**

2- تضمين أبياتٍ لمدّاحٍ قدامى

3 شطروا قصائد غيرهم كما فعل الشاعر «عبد الرزاق الجندي) حين شطر بردة كعب بن زهير (بانت سعاد) وأشار إلى ذلك فقال:

**وكيف لا، وفؤادُ الصَّبِّ مشغولُ**

**«بانت سعادُ فقلبي اليوم مـــتبولُ»**

4- وجود مساجلات شعرية بين اثنين أو أكثر يبدأ واحد فيتم آخر،

5- اقتباس أسماء سور القرآن الكريم في أبيات المدحة .

**5- سمات المدائـح النبـوية:**

وأخيرا فإن المدائح النبوية في هذه العصرتمتاز بسمات عديدة ولعل أهمها:

1- كثرتها وقد دعا إلى ذلك ظروف سياسية واجتماعية ودينية كما عرفنا .

2- استهلت بالغزل، وكان بعضه رمزياً،أو بدأت بمناجاة الله سبحانه ، أو بذكر الشيب أو بوصف الطبيعة ، ثم انتقلت إلى الرحلة فالمدح، وتنتهي المدحة غالباً بالصلاة عليه .

3- كان بعض المدائح قد حوى علم البديع وسمي هذا البديعيات، وكان رائدها فيما أرى يحيى الصرصري لا البوصيري وإن كان لهذا فضل تطويلها وتجاوزها مئة البيت .

4- لم يتطرق أدبنا العربي قبل هذا العصر إلى مدائح الأنبياء الآخرين كزكريا وإبراهيم عليهما السلام في قصائد مستقلة كالتي نراها في هذا العصر.

5- كان في بعض المدائح مغالاة غير حميدة

6- تأثرت المدائح النبوية بالموسيقا المستحدثة إذ وجدت مزدوجات ومخمسات وموشحات نبوية.

7- وكثرت المعارضات للقصائد النبوية ولغيرها، وكذلك المساجلات الشعرية النبوية، والتشطير لقصائد نبوية.

8- أسلوب المدائح النبوية مال إلى البساطة، وإلى النغمات الوادعة الرخيمة.

9- وجدت مدائح نبوية مطولة تشابه الملاحم إذ تحدثت عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة خلفائه من بعده.

وأخيراً ..